

أثر الحقبة الثورية الجزائرية في رسم الشعر المغربي

أ.د. بوزيدي محمد

جامعة معسكر

ملخص:

لطالما جسد الأدب قضايا محورية في العلاقات بين البشر و شخصها بمنظور العين الناقدة من خلال إثارته - فنيا - جملة من الإشكاليات التي مستها ،كتلك المرتبطة بهوية المجتمع و انتمائه الحضاري . وقد أثرى الشعر ،كغيره من الفنون الإبداعية الجانب الموضوعاتي المتصل بالوقوف عند تيمات تعالج أبعاد تلك العلاقة بتشخيص متفاوت وفق مرجعيات كل شاعر . ونلمس ذلك في الشعر العربي وما اتصل منه بفترة ثورة التحرير الجزائرية بشكل خاص . ومن خلال ما سبق ذكره، يسعى المقال إبراز الدور التعبوي للقصائد العربية في مسيرة الكفاح للشعب الجزائري ، وكيف أصبحت مرجعية و منبع استلهام للكتاب العرب .

الكلمات المفتاحية : الثورة، الشعر ، الحرية ، الكفاح الابداع.

Abstract:

Literature has always been a central issue in the relations between human beings and the person in the perspective of the critical eye by raising - Vinya - a range of problems that touched such as those associated with the identity of society and civilization.

Poetry, like other creative arts, enriched the thematic aspect related to standing at themes dealing with the dimensions of this relationship with different diagnosis according to the references of each poet.

Through the above, the article seeks to highlight the mobilizing role of Arab poems in the struggle of the Algerian people. And how it became a reference and a source of inspiration for Arab writers.

Keywords: Revolution, Poetry, Freedom, Creative Struggle.

تمهيد

تعد الثورة الجزائرية بروحها و أسلوبها و نتائجها من أهم الثورات في النصف الأول من القرن العشرين ،التي كان لها صدي حضاري وإنساني كبير في شمال إفريقيا ،وحتى العالم فهي ليست مجرد وقائع سياسية وعسكرية ضد الاستعمار الفرنسي فحسب ،بل هي ثورة ذات مضامين حضارية ،عقائدية ،إنسانية ،ثقافية وفكرية ، فأسالت الكثير من الحبر في شتي الأنواع الإبداعية وتحمس وتجاوب معها الشعراء والأدباء في الوطن وخارجه.¹

و ليس مستخفيا على أحد من الدارسين، أن الشعر العربي المغربي أدى دورا مهما و واعي في تصوير ما عناه الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي الغاشم ،فقد كان الناقل و المصور لكل أحداث السياسية و العسكرية و الاجتماعية ،علاوة على أنه كان الموجه لحماس الجماهير في جملة من القضايا وبصفة خاصة في مواجهة المستعمر ،وعدم الخنوع للذل و الاحتلال ،والتطلع إلى العيش في ظل الحرية و الاستقلال .

فكانت آنذاك تلك المبادئ القومية و الروحية الخام الأساسي لشتى الموضوعات الشعرية المواكبة لحركات التحرير و متتبعتا للمسيرة النضالية في الوطن وخارجه، و بالخصوص عند الدول العربية المجاورة، ونخص بالذكر المغرب الشقيق وتونس، وفي العالم ككل.

وبناء على تلك الخصوصية، والفترة الزمانية القاهرة أي فترة الاستعباد والاستعمار الهتمي أثرت في مجرى الكتابة الإبداعية الشعرية، وقد تمثلت سماتها الأساسية في العناصر التالية:

1 - الدعوة إلى تحرير والحرية :

إن شعراء العربية في العصر الحديث لم يتخلفوا عن الركب، بل كانوا دائمي الحضور المستمر و الفعال في جميع الظروف وخصوصا النخبة التي أدركت أن مصلحتها في علاقة جذلية ومصلحة المجتمع في كل انجاز أو انتصار لتحقيق التحرر و التقدم ، نفس الأمر ينطبق على الشعر الجزائري الخالص، حيث تناول في قصائده عن الثورة الجزائرية موضوعات شتى و متعددة مثل وصف بطولات الثوار وأمجادهم في معاركهم، وفرنسا وحلفائها وطبيعة الاستعمار، ونضال المرأة الجزائرية².

يقول شاعر الثورة بلا منازع مفدي زكريا (1908-1977) في إحدى قصائده المشهورة
يا فرنسا قد مضى وقت العتاب ***** وطويناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إن ذا يوم الحساب ***** فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا فصل الخطاب ***** وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فإشهدوا...فإشهدوا...فإشهدوا.³

وقريب من هذا المعنى ، يقول محمد العيد آل خليفة في مواجهة المستعمر وسعيه إلى زرع الثقة في نفوس الجزائريين .

ألا أيها الشعب الذي بجهاده ***** أعاد جهاد الصحب يفوقهم أثرا
لقد ثرت في التاريخ أعظم ثورة ***** تسجل تبرا في الصخائف لا حبرا.⁴
وفي نفس المنحى، فقد أجاد الشاعر محمد الشبوكي وأحسن الدعاية للثورة الجزائرية ومبادئها السامية لأعدائه، فألهب بقصائده النفوس إلهابا وأيقظها من غفلتها إيقاظا، وهو الذي هيا النفوس لتغيير الواقع وجعلها تستهين بالموت، ومن أهم قصائده نشيد الثورة : جزائرينا⁵

جزائرينا يا بلاد الجدود ***** نهضنا نحطم عنك القيود
ففيك برغم العدا سنسود ***** ونعصف بالظلم والظالمين
سلاما سلاما جبال البلاد ***** فأنت القلاع لنا والعماد
وفيك عقدنا لواء الجهاد ***** ومنك زحفنا على الغاصبين

هذا داخل الوطن، أما خارج الوطن ،حين انطلقت أول شرارة للثورة المباركة انطلق معها صوت الشعر في أنحاء الوطن العربي يحدو المعارك و البطولات المحققة بأنغامه المقدسة ،فكان بمثابة السلاح الروحي النافذ حيث دعا إلى الحرية والثورة ضد الوجود الاستعماري.

فهذا الشاعر محمد بن ادريس العمراوي، الذي استهل قصيدته بتبنيه المغاربة من الغفلة ، وإثارة الحماس فيهم لمقاومة العدو الذي أصبح بين ظهرانهم يتهيء للانقضاض عليهم .. يقول :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد ***** فالكفر قد شارككم في البلاد
والشرك قد نصب أشراكه ***** مستعبدا بكيده للعباد
ويا حماة الدين ما صبركم ***** والمشركون يطلبون البداد
ما هذه الغفلة عن ضدكم ***** وأنتم في الحرب أسد الجلال⁶

سرعان ما توالى الإمدادات من المغرب على الجزائر، فأحست فرنسا بالضييق، وأعلنت إلغاء عقد الهدنة الذي كان بينها وبين المغرب.

وعلى هديه يقول الشاعر هذا، أحمد المجاطي من خلال مرونة عالية وإمكانات نغمية وإيحائية كثيرة ، يعبر عن مواقفه ومشاعره تجاه الثورة في الجزائر ، يقول في المقطع الأخير من قصيدته :

" أغنية الصباح " :

حرروا المغرب يا أبطال وامضوا للجزائر
أرضنا هذي التي عاثت بها شهوة غادر
دينها ، تاريخها أودت بها صفقة تاجر
نحن لا نهذاً حتى نبصر القطر المجاور
لفظ الذل وولى يملأ الكون مفاخر
يا ظلام القبر لن تغمر ساحا
بعيوني . رغم أشباحك . أبصرت الصباحا
يبسط اليوم من السعد على الدنيا جناحا .⁷

وفي شمال اقريقيا، تعاطف الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي مع القضية الجزائرية و تبنى المشروع الثوري، ويبشره باليوم العظيم الذي سيعقب المعركة ،وسيمحو مع العار كل المعاناة و الدموع ،ويشيع الحب و السلام بين قمم الأوراس الدامية ،فيخاطب الأمة الجزائرية في قصيدته قم يا أوراس بقوله:⁸

ياينبوعا يغسل عار الماضي ***** يا نور العرب على طوال البحر الأبيض
يا أخي ،يا فخري ،يا ملهمة شعري ، يا أوراس

وفي قصيدة الشاعر أحمد السراج " ثورة الجزائر " إذ يقول :

إلى المجاهدين الأحرار في
سهول الجزائر وجبالها، إلى
المكافحين والمقاومين في أي شبر
من أرض الجزائر ، أهدي
هذا النشيد
سنفدي البلاد بأرواحنا

سنفدي البلاد بأبنائنا
 سنحامي الديار
 ونحامي الخيام
 ونحامي المواطن
 من كل عار ...⁹

2- قومية الثورة الجزائرية :

عالج بعض الشعراء الثورة الجزائرية من منطلقات قومية تحريرية ، فأخذوا على عاتقهم عبء الهم و الحرمان ،كون الشعر أصدق تعبير في الأحاسيس و المعاناة اليومية .
 ولقد مثل هذا الموقف مجموعة من شعراء ،من مفدي زكرياء إلى سليمان العيسى إلى حسن عبد الله إلى محمد العربي صمادح ،فقد اعتبر الشاعر مفدي زكريا الثورة ملهمة لشعوب الأرض ، ولقاح أينع زهره في الدنيا قاطبة ، فهي المثل الأعلى، وهي أكبر معلم للعالمين أبلغ دروس التضحية والفداء في سبيل الحرية،حيث يقول:

وثورة لشعوب الأرض ملهمة ***** أحييت لواقحها بيضا وسمرانا
 تعنو لوثبته الدنيا وتكبرها ***** وتقه الكون بالرشاش معنا¹⁰

وكان نفس التوجه عند الشاعر حسن عبد الله القرشي في قصيدته كفاح مقدس ،يعتز بالثورة والثوار ويجعلهم رموزا أسطورية ،والثورة في حد ذاتها ما هي إلا امتداد للقيم الإسلامية ،يقول¹¹
 قد عاد طارق وعاد السمح للفتوح ***** ودورت الجبال بالنشيد والسفوح
 وغير بعيد ، ومن تونس شقيقة ترتفع أصواتا شعرية مدوية ،تهيج العواطف بتصوير فظائع الاحتلال في الجزائر الحبيبة ،منددة بأعماله الوحشية و الاستعباد المفروض على الشعب الضعيف وتطلق عليه نعوتا فيها الغضب و النعمة و الحقد ومن هذه الأصوات الشاعر العربي محمد العربي ،الذي يقول :
 تسابق الجيش الكبير .../ليطوق الحي الصغير .../أين الحماة/رباه أين رجالنا.../أين الكماة .../ذهبوا
 لنجدة آخرين .../قد أعدموا كل الشباب .../في البلد الأمين .¹²

3- معناة المرأة في الثورة:

من تجليات الثورة الجزائرية لدى الشعراء العرب التغني ببطولة المرأة الجزائرية التي رفضت القهر و الحقرة لتشارك في المعارك إلى جانب الرجل .
 فهذا الشاعر محمد العروسي المطوي تنوسي الأصل ، يصور لنا في إحدى قصائده موقف مأسوي تعرضت له فتاة ريفية والمتمثل في الاعتداء الوحشي من طرف جندي فرنسي ،بعد أن حطم الكوخ البسيط بساطة الحياة في الريف ،فطعننت بطنه بخنجر ،ثم التحقت بالمجاهدين في الجبال الشامخة ،فقال:
 إني بدأت المعركة .../إني سأصعد للجبل/مهدي البطولة و الخلود .../سأعود ،سأعود يا كوشي
 الحطيم .../...وتضيئ شمس الظافرين .../...في كل مغربنا العظيم.¹³

وقد مثلت وجسمت بطولة المرأة الجزائرية كذلك المجاهدة جميلة بوحيدر، التي كانت مصدر فخر واعتزاز لكل امرأة عربية، ومفكر عربي .

وبنفس الأسلوب المعتمد يستمر محمد الحلوي في ابداعاته التحدث عن المرأة الجزائرية وبطولاتها محاولا رسم مكانة لها ¹⁴، وابرز دورها الفعال في الثورة المباركة . إذ يقول في هذا الصدد:

لهفي للأيدي النواعم كانت ***** تنسج البرد أو توشي اللثاما
اكفات على الطروس تفيض ال ***** حب فيها وتمسك الأقالما
تصنع الخير والفداء وترفو ***** وتواسي الجروح والآلاما
لهفي للأيدي النواعم تدمي ***** لها قيود المستعمرين انتقاما
لهفي لليتيم يبحث عن أم ***** طواها الردى يردد : ماما
أذهلتها عنه طلائع وحش ***** جائع قبل أن يعد الفطاما
وتخلت عنه لتحمي عرضا ***** عربيا غالت به أن يساما ¹⁵

بينما أحمد المختار الوزير/تونس/ فخصها بقصيدة جد مؤثرة ومطلعتها :

جميلة أنت الوجود بما ***** تريديننا مختارة راضيه
وأنت الحياة و أكوانها ***** بما فيك من عزمة ماضية
فكوني لقومك كوني لهم ***** من الحب آيته العالية. ¹⁶

وفي الحقيقة هذه الأبيات ما هي إلا اعتراف ضميري لقسوة و وهمجية المستعمر الفرنسي في السجون وكيفية تعامل مع المرأة السجينة.

الخاتمة :

تأسيسا على ما سبق ، الشعر هنا لم يعد ذلك المعبر عن مكنونات الذات أو عن تفريغ شحناتها المكتنزة أو المكبوتة. وإنما أصبحت له وظيفة قومية اصلاحية، وقد اتضح من خلال الاعمال الابداعية في الشعر المغاربي وحتى غير المغاربي ، حيث عملوا على إبراز مختلف تجلياتها وأبعادها .. فانطلقوا من خلال مواكبتهم للثورة الجزائرية للتعبير عنها بصدق إحساسهم وعمق تجربتهم الشعرية .. الأمر الذي أسعفهم في تشكيل أدواتهم التعبيرية ووسائلهم الفنية ، وجعل الكلمة تلعب دورها خلال الثورة التحريرية تحمل في طياتها شحنات موسيقية حادة، ولعل الشاعر كان يجري وراء هذه الكلمات بدافع الموقف النفسي المتحمس الذي يدفع الشعراء إلى اختيار الكلمات العنيفة القوية دون مراعاة لمتتاليات الفن، ذلك هو القليل من الكثير الذي ينبغي أن يقال عن مكانة الثورة في الشعر المغاربي ¹.

هوامش البحث:

- ¹ - البخاري حمادة، الأبعاد العربية الثورة الجزائرية مجلة الثقافة ، ع 83، ص 253.
- ² - ابراهيم الجلوطي، ثورة الجزائر في الأدب العالمي، ترجمة أحمد المالكي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 35.
- ³ - سعيد احمد ،مفدي زكريا والشعر ،دار الطيب للنشر والتوزيع،الجزائر ،سنة 1988،ص96.
- ⁴ - محمد العيد بن محمد علي الخليفة ،ديوان محمد العيد آل خليفة ،دار الهدى ،الجزائر،2010،ص402.
- ⁵ - الديوان المرقون ، ج 3. النص رقم : 40706-، ص.170.
- ⁶ - ديوان سليمان العيسى ،دار الشورى ،بيروت،1980،ص361.
- ⁷ - جريدة العلم . العدد 258 السنة ، 1957
- ⁸ - المرجع نفسه 153.
- ⁹ - جريدة العلم ، العدد 2706 ، نونبر 1957
- ¹⁰ - مفدي زكريا ، اللهب المقدس،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر ،2007 ص 297
- ¹¹ - حسن عبد الله قرشي ،نداء الدماء ،منشورات دار الآداب ،بيروت ،1964،ص215.
- ¹² - مجلة الندوة ،تونس، عدد ماي 1956،ص51.
- ¹³ - مجلة الفكر ،عدد ديسمبر 1956،ص35.
- ¹⁴ - ديوان " أنغام وأصداء " ص. 117 . 118.
- ¹⁵ - ديوان " أنغام وأصداء " ص. 117 . 118.
- ¹⁶ - مجلة الفكر ،عدد ديسمبر 1956،ص25.